شـــلر

للكاتب الكبير توماس كارليك

ترجمة الأستاذ يوسف عبد المسيح ثروت

— ٢ —

كانت حياة شلر حياة أدبية بكل معنى الكلمة ، حياة شخص عاش قصد التأمل ، وكان مرشده فى هذا السعى لايتعدى المثل الأعلى ، وقد وجد فى مثل هذه الحياة سعادته التى كان يرنو إليها . وقد امتازت هذه الحياة بالبساطة الفريدة كما اتصفت بالابتعاد عن امتهان ما يتعيش به ، وقد نما مقته للعمل الآلى ولم يبال بنتائجه جنباً لجنب مع نموه الروحى سنة بعد أخرى . لم يحتل شلر منصباً معيناً اللهم إلا

قوادا مثل » « أوجيرو » « وماسينا » وغيرهما سنة ١٧٩٦ ولما جاءه الجنرال « ديبنوا » سنة ١٧٩٧ بقصد التملق والتزلف قال له نابليون : «عرفتك لما كنت قائدا فى لومبارديا وعرفت أنك قليل النزاهة . . عاشقا للمال . . على أنى كنت أجهل أنك جبان » فاخرج من الجيش ولا تظهر أمامى مرة أخرى . . وكتب نابليون إلى « برتييه » يقول : « اكتب إلى الجنرال « جاردان » أن بشكاوى عديدة انتهت إلى من إخراجه لأهل البلاد وأن الواجب عليه أن يسلك سلوكا يتفق مع كرامة الجيش فلا يسمعنى بعد اليوم شكوى واحدة من تصرفه » وكتب إلى الأميرال « تروجيه » : « لا يسعنى إلا الاستياء من الأسطول الذى تحت إمرتك . . وأنا يحق لى أن أنتظر محاسن الأفعال بدلا من المواعيد والأقوال »

وكان نابليون لايحابى الوزراء.. ولا الكبراء.. حتى فى سنة ١٨١٤ أى بعد أن مال نجمه إلى الأفول . . وهذا يدلنا على صحة ماقاله أحد المؤرخين وهو : أن نابليون لم يكن ذئبا ولا خروفا .. بقى أن نعرف أن نابليون . . نشأ من أعماق الشعب . .

عبد القادر حمزه

منصب الأستاذية فى الجامعة ، ولم يرغب فى التقدم المادى ولم يكن لديه مال يذكر ، ولم يظهر — طيلة حياته — عدم رضائه عن هذه الأوضاع

وبالرغم من الآلام الجثمانية والأمراض المستمرة التى أحاطت به أن انشراحه لم يكن يفارقه وكانت الخمس عشرة سنة الأخيرة من حياته هى أحسن سنى حياته ، لأنها كانت أنقاها وأصفاها وأكثرها إنتاجا ، فحياته كانت تشبه حياة الرهبان مع اختلاف بسيط فى طراز المعيشة والمحيط ، وإذا نحن عرضنا الإيمان الكاثوليكى بمثل الفن الأعلى ، والقوانين الكنيسية بالقوانين الأدبية والجمالية فسيؤدى ذلك إلى اعتبار حياته أقرب ما تكون بحياة الدير ، ومع أنه لم يرتبط بعهود الرهبنة الثلاثة [1] إلا أنه ارتبط بعهود أخرى أرفع شأنا وأعلى قدرا وأثقل وطأة ، وقد تحمل عناء شديدا فى تنفيذها والتقيد بها والالتزام بملتزماتها

وقد كانت هذه العهود — على شدة ثقلها — شغله الشاغل ومبعث سعادته الدائمة ، فبدلا من أن يحصر نفسه فى رواق الكنيسة الصغرى ، نراه يحصر نفسه فى أروقة العقل ، فاسلا بذلك نفسه من الأمور السطحية ومغرقا نفسه فيما يمكن أن ندعوه بالأمور الإلهية ، فكلامه وأعماله وتأملاته وتنزهاته وكل ماله علاقة بحياته اليومية تتجه نحو تلك الوجهة ... فكما أن مرحلة اتخاذ الرجل الدينى للعهود المقدسة هى أهم مرحلة فى حياته.. كذلك الحال مع شلر فيما يخص عهوده الأدبية ، وبهذا العمل يمكنه أن يتخلص من مشاغل العالم المحيرة ويكرس كل جهوده فى مستقبل أيامه للحكمة والتأمل . والفترة التى تقع بين هاتين المرحلتين تمتاز بميزات مختلفة . فالأولى هى دنيوية ذات انهماك فى صروف العالم.. والثانية روحية ذات اتجاه هادئ عميق الغور قصى المعانى ، وقد امتاز الاتجاه الثانى بنموه الروحى وازدهاره الفكرى وبالثمرات السامية التى قدمها إلى العالم ، وسنوجه عنا نظرنا بصورة رئيسية إلى المرحلة الأولى

يمكن اعتبار شلر سعيدا بالنسبة للظروف التى أحاطت بأعوامه الأولى وخصوصا فيما يتصل بوالديه . لم يكن والداه غنيين أو مستقلين فى شؤونها المعاشية ، إلا أنهما مع ذلك لم يكونا فقيرين

(١) عهود الرهبنة هى ١ الفقر ٢ العفة ٣ الطاعة

فقرا مدقعا ، فالمحبة الحارة والأخلاق الصريحة التي تبلغ مبلغ التدين ، يضاف إلى ذلك قابلية ذهنية متفتحة خاصة للمعرفة ، مع ثقافة عقلية جيدة تجعل في الإمكان إصلاح أي خلل قد يقع بينهما

وقد كان في سلوكه ما يبشر بمستقبل عظيم ، طبيعة هادئة قابلة لكل الإرشادات ، يزينها عقل وقلب ووميضات من الحيوية والنشاط تظهر بين الحين والآخر ، وليس أدل على ذلك من حكاية الصاعقة التي نأمل أن تكون واقعية : (حدث أن عاصفة صاعقية اجتاحت المنطقة التي يسكن فيها وكانت من الشدة والقوة بحيث أثارت الخوف والرعب في جميع السكان ، وكان الكل داخل بيوتهم ، وقد افتقد أبو فرتز [٢] ابنه ، وقد كان في دور الطفولة ، فخرج الأب لا يلوي على شيء باحثا مفتشا عن ابنه ، وفجأة عثر عليه قابعا بكل هدوء وسط هذه العاصفة الهوجاء في رأس شجرة وهو ينظر بدهشة واستغراب لاحتراب الطبيعة ، فما كان من والده إلا أن عنفه أشد التعنيف ، ولكن الولد بدلا من إصغائه إلى هذا التعنيف أجاب : « إن البرق جميل جدا ولكنه يريد أن يرى من أين أقبل هذا البرق [٣] » ...)

درس شلر الكتب الكلاسيكية باعتناء زائد ولكن بدون رغبة ، إلا أنه درس الكتاب المقدس بلذة بالغة في البيت ، وقد شغف حبا بالأنبياء العبرانيين وبجلال كتاباتهم الرمزية ، وقد كان لطبيعته الورعة — مضافا إليها تقوى والديه — تأثير في دفعه إلى الكهنوت ، ولكن الكنيسة التي أراد التعلق بها كانت الكنيسة الشاملة الحقيقية وليست الكنيسة الرومية المزيفة . وفي سن التاسعة شاهد بدهشة مفرحة ولأول مرة (عجائب مسرح لودفيكزبرغ) وقد كان لهذه المشاهدة تأثير عميق في ذاكرته . وبذا يكون قد ألقى أول نظرة على العالم الذي قدر له — عرضا أو بعامل الطبيعة نفسها — أن يظهر فيه عبقريته ويحرز أنبل انتصاراته بازا بذلك أقرانه ومعاصريه جميعا

وبعد نهاية عهد صباه بدأت فترة قاسية مريرة ، اختلفت فيها تربيته وتطورت قابلياته تطورا خاصا ، وذلك بتحمله للاضطهاد ومعاناته العزلة وبتحطيم أجمل أيام حياته وتشويهها تشويها شنيعا . ومع ذلك فإنه استفاد في هذه الحالة فوائد جمة ، فقد حولت سيميا، عبقريته المعادن النافهة إلى ذهب إبريز ، واستخلصت من التألم قوة ومن الخطأ حكمة وضاءة ومن كل شيء أحسنه وأرقاه

أسس دوق ورتمبرك مدرسة عالية حرة لبعض فروع التعليم المهني في (سولتيرد) في مركز إقامته في الريف ، ثم حولها إلى (ستتغارد) بعد أن أدخل عليها بعض التحسينات ، وقد سماها مدرسة كارل . وقد رأى الدوق أن يعطي الأفضلية في الدخول إلى هذه المدرسة لأبناء الضباط ، ولما كان لدى الدوق فكرة حسنة عن شلر وأبيه طلب من الأول اهتبال هذه الفرصة السانحة

وقد صادف هذا العرض حيرة لأول وهلة من قبل الشاب والوالدين على السواء ؛ لأن الأخيرين كانا راغبين في إدخال الشاب إلى حظيرة الكنيسة ، ولما اطلع الدوق على رغبتها الخاصة طلب منها التأني قبل إعطاء القرار النهائي ، وأخيرا قبل هذا الطلب بعد إحجام ونتيجة للخوف . وهكذا سجل شلر نفسه في هذه المدرسة سنة ١٧٧٣ وبذا انتقل من الحرية والآمال العريضة إلى اليونانية والعزلة والقانون

وقد أثبتت الوقائع أحقية مخاوفه ، فالسنوات الست التي قضاها في هذه المؤسسة تعتبر أشد السنين مضايقة لنفسه وإزعاجا لمواهبه ، ويظهر أن نظام التربية في ستتغارد لم يعن مبدئيا بتربية الطبيعة البشرية وإصلاح أخطائها ، بل عمل على استئصال هذه الطبيعة ووضع شيء أحسن منها في محلها . وقد كان نظام التعليم سائرا والحياة وفق خطة عسكرية شكلية جافة ، كل شيء كان يجري حسب الخطة المرسومة ولم يكن ليعطى أي مجال لحرية الإرادة ، ولا إمكانية لاختلاف الطبائع والمشارب والعادات . وقد يكون لبعض الطلبة إمكانيات ممتازة ، إلا أن هذه الإمكانيات كانت مجبرة على السير وفق الخطة الأساسية والانصهار في البودقة ذاتها بدون تفريق أو تمييز ، لأن الأوامر كانت تصدر من سلطة عليا ، وهي واجبة التنفيذ على أية حال . وقد عين لكل طالب منهاج دراسته مقدما ، ولم يكن ليسمح بالقراءة الخارجية مطلقا ، وإذا حدث أن قرأ أحدهم كتابا خارجيا فلم يكن ذلك إلا خلسة . أما معيشتهم فكانت تدار بالأسلوب ذاته الذي تدار به حياتهم الروحية ، وقد كانت هذه الحياة لا تحتوي على شيء يمكن أن يقارب المتعة أو حتى ممارسة الحرية . وقد أبعد الطلاب عن

(٢) اسم شلر الأول في التعميد (٣) حياة شلر

الحادثة أو حتى رؤية أى شخص ماعدا أساتذتهم . ولم يجسر أحدهم على تخطى نطاق العبودية المضروب حولهم ، وزهتهم نفسها كانت مقيدة بالكلمة الآمرة

يمكننا أن ندرك بسهولة كم كان مفجعاً كل هذا بالنسبة للطلبة ، وكم كانت الفجيعة هائلة بالنسبة لشلر ، لما امتاز به من طبيعة حساسة وشعور مرهف . فتراه وقد طغى عليه التبرم ولكن حياءه منعه من أن يظهر ذلك قولا أو فعلا . وقد أوقع سجنه هذا به ألماً عميقا ولكنه كان يأنف من الشكاة . وقد حفظت بعض رسائله فى هذه الفترة ، وفيها نجد النضال غير الثمر لذهن متحمس مشغول وهو يحاول ستر الكروب تحت غطاء الصبر الخائف وهو يظهر ألمه على أشده . لقد انكب على قواميسه وكتب النحو وواجباته المقيمة برصانة مصطنعة، ولكن روحه كانت كروح الأسير تحن إلى العالم الحر البهيج ، وتستعيد ذكريات حنان الوالدين والآمال والمتع المثيرة للسنين الخالية . إن الشباب هو فضل الحياة الزاهى ، وهو كذلك ليس بما يناله أو يتخلص منه بل بما يأمله ويرجوه . وقد يظن بعضهم أن لآلام شلر أمثلة كثيرة فيقول : « أو ليس فى قصة كل طالب من طلاب أيتون مثال حى لمثل هذه الآلام ؟ أو ليس كل هؤلاء قاسى الفرقة الجارحة والمصائب الفادحة والاضطهادات المبرحة والعزلة القاتلة ؟ ولكن الصعوبات التى أضنت شلر كانت أعمق من كل هذا ... إن أسوأ اضطهاد عاناه هو الاضطهاد الأدبى ، كل هذه الأصفاد تقيد الرغائب فقط ، بل إنها تمتد إلى تقييد الإرادة الحرة العاقلة ، فزيادة على آلامه الخارجية أبعد ذهنه عن الهدف الذى شعر بأنه الهدف الحق وحول إلى هدف آخر مزيف ليس فيه من معانى الحياة شئ يذكر . ولم يجد فى الحقوق ولا فى الطب الذى اضطر على الاستعاضة به عن الحقوق ولا فى أى عمل رتيب مهما علا قدره وارتفعت منزلته ما يرضى روحه وما يشعره بالسعادة والهناء ، ولكن الذى كان يسمى إليه هو فعالية عليا لم يجد لها اسماً حينذاك والتى تخيلها يوما ما فى الانضواء تحت لواء الكنيسة وأخيراً وجدها وكانت هى الشعر بالذات . ولم تكن هذه الرغبة رغبة صبيانية طارئة، بل كانت شوقاً ملحا عميق الجذور أخذ عليه مجامع قلبه وتمثل فى هدفه الذى كرس حياته للوصول إليه . ومع ذلك فإن أساتذته اعتبروا ذلك منه رغبة صبيانية ليس إلا ... فعالجوها كما يعالجون أمثالها، ولم يتمكن شاعرنا من الانتصار إلا بعد معركة ضارية ونضال عنيف انتهى بفوزه ، ولم يحدث ذلك إلا بعد أن أصيب بأول لسعة فشتت ذهنه وكاد تبعثر مستقبله لأنه فقد العون فى تعاسته وشقائه ، فتألم وجاهد فى سبيل قضية خاسرة، وقد قال شلر نفسه فيما بعد بخصوص ذلك : « لقد جمعت الطبيعة — بسوء تقديرها — بين ميولى الشعرية وبين مكان ولادتى . فكل رغبة فى الشعر كانت تصطدم بقيود المدرسة التى تعلمت فيها وتناقض خطة مؤسسها . فبحماستى لمدة ثمانى سنوات ناضلت ضد النظام العسكرى ، ولكن هيامى بالشعر كان حدا حده الحب الأول . والشئ الذى أراد النظام أن يطفيه زاده تأججاً وضراما ، وقد وجدت قلبى فى عالم الأفكار ملجأ للتخلص من الأوضاع التى عذبتنى كثيراً ، بعد أن عزلت من عالم الحقائق بالأصفاد والأغلال »

ومما من شك أن حكمة شلر الخاصة علمته التوكيد على الحياة قبل توكيده على الحياة الشعرية ، وقد عبر عن ذلك بقوله: «يجب أن أترك مناخ بندس[٤] واستبدله بالأرض الخضراء ذات المناخ المتجمد فى النصوص العلمية المخيفة » وحالما يقضى الله أمراً كان مفعولا يصبح عمل شاعرنا المرتيب منتهياً وأمله محققاً ، فوقت الفراغ الذى سيحصل عليه نتيجة لذلك سيكرس للشعر أو أى شئ آخر ، وفى الحقيقة « أن بقاءه مقيداً بقيود معلميه القساة كان أمراً غير محتمل ومهينا له ، فلا عجب أن فكر شلر يائساً فى وضعه، ولكن ما العمل ؟ وهذا مما اضطره على أن يضع خططاً عديدة للنجاة ، وقد كان يتوسل أحيانا بالهروب خلسة ليلقى نظرة على العالم الحر الحى ، هذا العالم الذى كان محظوراً عليه التقرب منه ، وأحياناً أخرى كان يضع بعض الخطط لنبذ المكان الذى كرهه هذه الكراهية مؤملا أن ينقذه القدر » . ولكنه كان صغيراً ، عديم التجارب ، لا مساعد له ولا معين ، فليس هنالك إلا تحمل ما هو واقع بصبر وأناة . يقول كاتب سيرته : « إن أى روح تحيا تحت مثل هذه الظروف المنهكة والغضب المستعر ، مكتوب عليها الغرق حتما فى النهاية والتخلص من

(٤) واد فى اليونان

المطامع الدنيا والانهماك المعيب والخضوع لربقة النير والتعثر فى هـذا الوجود متكسرا ، تعباً ، ومتبرما وملقياً نظرة تائهة إلى أحلام شبابه التى ليس له القوة على تحقيقها . ولـكن شلر لم يكن من هذا الطراز الاعتيادى من النـاس ليفعل مثل ما يفعلون . وتحت ستار المظهر الخارجى البارد الذى ليس فيه جاذبية مفتعلة ، ولطفه الذى شوه نتيجة الموانع والعزلة والفاقة المؤلمة التى قاساها فى حياته ، أقول ، تحت مثل هـذا المظهر تختبئ نار متأججة ليس للموانع قابلية على إخمادها . والظروف القاسية التى أحاطت بمستقبله عرقلت نمو ذهنه نموا طبيعيا وقلصت قابلياته ووجهتها وجهة خاطئة . على أن هذه العقبات جمت قواه وجعلته يعتمد على نفسه . أما أفكاره التى لم يكن لها مرشد يهديها سواء السبيل فقد انحدرت إلى أعماق نفسه وفتحت مغاليق مصيره ، وقل مثل هـذا عن مشاعره وعواطفه التى تجمعت فى أغوار ذاته حتى أصبحت كحمم البركان يحـترق وينصهر ويتجمع بعنف وبقوة هائلتين استعداداً للانفجار المروع الذى لا يرد ولا يصد وذلك واقع حتما فى ساعة معينة

« يمكن اعتبار شلر لحد الآن صبيا متبرماً ضجراً وغير نافع ولـكن الوقت أزف لـكى يصبح هذا الصبى رجلا يمزق القيود شر ممزق بقوة امتد تأثيرها فى طول أوربا وعرضها ، ولم يعد للقيود المدرسـية أى تأثير فى تشويه قابليته وإضعاف قوة شخصيته الجبارة . إن نشر (اللصوص) يعتبر فتحاً جديدا ليس فى تاريخ شلر بل فى الآداب العالمية ، وليس من شـك أن الفضل فى ذلك يعود إلى نظام مدرسة ستنغارد المشوه، ولولا هذا النظام لما رأينا هذه المأساة . بدأ شلر هذه المأساة فى سن التاسعة عشر ، ويمـكن تتبع كل الظروف التى أحاطت به فأثرت فى مجرى حياته فى جميع أجزاء المأساة المختلفة بصورة جلية واضحة

ولم تمض مدة قصيرة على نشر هـذا الـكتاب حتى ظهرت تراجم له فى جميع لغات أوربا تقريبا ، وقرئ من قبل الـكثيرين بمزيج من المقت والإعجاب، وذلك بالنسبة للحساسية والانطباع الوجدانى لـكل من درس الـكتاب . لقد هبط المؤلف الصغير كشهاب على العالم مما جعله مبهوتا لا قبل له بالنقد الهادى الرصين

وفى ضجيج النقاش الحاد الذى شمل العالم فى خصوص هـذا الموضوع مدح المؤلف بأكثر من قابليته الطبيعية ، كما أنه ذم ذما فادحا ، إلا أن الحكم العام كان فى صالحه ، وطبيعى أن يتعدى كل من الطرفين حدود الاعتدال ويتجاوز جادة الحق

ولـكن مأساة اللصوص أحدثت عـواقب لمؤلفها من نوع أشد حـساسية من هذا الحـكم ، لقد دعونا ظهور هذا الـكتاب نقطة البدء لنجاة شلر من جور المدرسة والضغط العسكرى ولـكن فعلها فى هذا الخصوص لم يكن مبـاشراً . . لقد أنهى شلر المودة الأصلية فى سنة ١٧٨٧ ولـكن خوف الأذى اضطره أن يحفظها سرا دفيناً حتى إكمال دراساته الطبية ، هذه الدراسات التى تابعها باجتهاد كاف حتى حصل على درجة الشرف سنة ١٧٨٠ وأصبح جراحا فى فرقة (أوجى) إحدى فرق جيش (فرتمبرغ) . وهذا التقـدم ساعده على إكمال مشروعـه فى طبع (اللصوص) على حسابه الخاص بعد أن حار فى إيجاد من يقوم بذلك من ناشرى الـكتب وأصحاب المـكتبات

للـكلام صلة

يوسف عبد المسيح ثروت

ظهرت الطبعة الرابعة الجديدة للمجلد الأول

من كتاب

وحى الرسالة

للأستاذ أحمد حسن الزيات

طبع طبعا أنيقا على ورق صقيل وقد بلغت عدد صفحاته خمسمائة صفحة ونيفاً وهو يطلب من إدارة الرسالة ومن جميع المـكتبات وثمنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد